**د. شاكركتاب**

**محــاضـرات**

**فـــي**

**المـذاهـب الأدبــيــة**

**المذهب الأدبي :**

أولاَ. المذهب الأدبي لغةً واصطلاحاً

ثانياً: كيف تنشأ المذاهب الأدبية.

ثالثاً: عصر النهضة.

**أولاً : المذهب لغة واصطلاحاً**.

جاء في الموسوعة العربية المجلد 18 صفحة 292 في تعريف المذهب:

المذهب doctrine لغة هو المعتقد والطريقة والأصل، واصطلاحاً هو مجموعة من المفاهيم ومن الأفكار والمواقف والقواعد الموجّهة التي تخص ميداناً بعينه من ميادين المعرفة أو النشاط، وتكون ذات اتساق وتجانس فيما بينها، غالباً ما يعود جميعها إلى عدد محدود جداً من المبادئ الموجهة التي تسري على كل مواقف المذهب وقواعده. وبهذا يدل المذهب على المضمون وعلى المنهج معاً، وهو بخلاف النسق (أو النظام) systemالذي هو تجميع للمعرفة في كلٍ عضوي هو أقرب إلى النظرية theory ، فالمذهب أعم من النظرية. بيد أن التمييز الأساسي هو ما بين المذهب والنظرية، فالنظرية تنطلق كفرض، وتكون قابلة للتحقق تجريبياً، وأكثر من ذلك يمكن تعديلها وتحسينها، أما المذهب فيقوم على رأي أساسي أو مجموعة من الآراء لتوجيه الفهم والسلوك باستقلالية عن التجربة، بل إن المذهب هو الذي يُخضع التجربة، بمعنى ما، لأفكاره، فهو قطعي وثابت وشمولي وهذا كله لا يناسب ميدان العلوم الطبيعية ـ ميدان تطبيق النظريةـ، فغالباً ما يكون المذهب ذا امتداد أبعد من امتداد النظرية التي تخص جانباً معيناً من ميدان ما (كنظرية التطور في علم الحياة).

**ثانياً: كيف تنشأ المذاهب الأدبية.**

تنشأ المذاهب الفكرية والفنية والأدبية عادةً نتيجة لحراك اجتماعي وقد يكون سياسياً تصاحبه تغييرات اقتصادية تنعكس بدورها على مجمل الحياة الثقافية التي يدخلها الصراع بين الأطراف على تثبيت أسس ومعايير وشروط للثقافة أو للأدب. وقد يسود أو يسيطر في النهاية أحد الأطراف وتنتصر معه آراؤه وشروطه وأفكاره، وهكذا في مجمل تاريخ آداب البشرية نجد أن المذاهب تولدت نتيجة صراع ثقافي يرافقه صراع وسجالات وحوارات في الساحة الأدبية يتمسك كل طرف بقناعاته وآرائه ويقدم الحجج والأدلة التي يستند عليها في معززاً بالأمثلة والنماذج التي تؤيد طروحاته. لكن يجب التذكر أن سيادة مذهب ما هو وأنصاره ونماذجه الأدبية لا يعني أبداً موت المذاهب الأخرى وخروجها من التاريخ نهائياً. بل هي قد تتراجع وقد تختفي وتنزوي فترة من الزمن لتعاود الظهور في فترات لاحقة قد تكون أكثر ملائمة لها.

وعادة ما ترافق ولادة المذاهب الجديدة تغييرات ثقافية واجتماعية ترقى إلى مستويات العصور الجديدة وتنبثق معها أنواع أدبية جديدة وشروط نقدية جديدة ورؤى فنية جديدة. بل واحيانا أنظمة سياسية ودول جديدة. أي أن المذاهب الأدبية وهي جزء من المذاهب الفكرية والسياسية قد تؤثر في الحياة الاجتماعية والسياسية فتساهم في تغييرات سياسية حاسمة لها تأثير في شكل الدولة. ويكفي أن نعطي مثالين هنا: الكلاسيكية التي أنتجها عصر النهضة أو هي ساهمت في خلقه وبناء تصوراته فانعكس ذلك على القضاء على سلطتين كبيرتين في أوربا وهما سلطة الكنيسة وثقافتها الروحية والماورائية والغيبية وما يرافق ذلك من عبودية المواطن لرجال الكنيسة وأحكامها وقوانينها والسلطة الثانية الحليفة لها وهي سلطة الإقطاع التي استعبدت الفلاحين وتحكمت بمصائرهم وبالتالي بكل مستقبل البلدان الأوربية اقتصادياً. فجاءت حركة النهضة لتحرر الناس من ثقافة وفلسفة الكنيسة وتستبدلها بثقافة علمية واقعية تستند على العقل والوعي وحررت الناس ايضا من سطوة الإقطاع ونادت بحريات الإنسان المخلفة. وأن من يتابع بدقة آثار عصر النهضة في أوربا يجدها آثاراً جليلة كبيرة تاريخية وحاسمة. فقد تأسست الدول القومية الحديثة المستقلة وتكونت نظريات فلسفية جديدة مستقلة ومتحررة إلى حد ما من سيطرة الفلسفة اليونانية القديمة وتكونت نظريات علمية جديدة في مختلف العلوم الطبيعية والإنسانية وتكونت أخيراً مذاهب أدبية فاعلة ومؤثرة غيرت مجرى تاريخ الأدب. لذلك يجب الاعتراف بصحة القول: أن ولادة المذاهب الأدبية يرتبط بولادة الآداب القومية وتطورها في أقطار أوربا الغربية بالدرجة الأولى.

وإذا كنا بحاجة إلى مثال آخر فلنذكر ان المذهب الرومانسي ولد نتيجة أحداث الثورة الفرنسية الكبرى التي أنجبت نابليون بونابرت الذي غزا العالم في اول اندفاعاته العسكرية ثم خسر معاركه الأخيرة والقي عليه القبض وأبعد أسيراً إلى جزيرة سانت هيلانة وبقي فيها إلى ان مات. فاستتبع هذه الحروب خراب حضاري وبنائي كبير وضياع أجيال بين قتلى وجرحى وأسرى ومهاجرين وغير ذلك فانعكس كل ذلك على الحياة الاجتماعية والثقافية والأدبية فولدت الرومانسية التي شكلت ثورة على كل القيود والضوابط واطلقت العنان للخيال وللتعبير عن اعمق خلجات وآلام الإنسان.

لكن , على العموم يرتبط دائماً ولادة الأفكار الفاصلة والحاسمة من مثل النظريات والتيارات والمذاهب السياسية والأدبية والفلسفية بالانعطافات السياسية والاجتماعية التاريخية الكبرى كأنواع الصراعات الحادة مثل الصراع الطبقي والحروب القومية والداخلية. وتزامنت ولادة المذاهب الأدبية في اوربا مع أمرين إثنين : انبثاق الدول القومية وحركة النهضة الثقافية والسياسية والفكرية التي رافقت ولادة هذه الدول , بل وربما تكون قد تولدت كل واحدة منها عن الأخرى أو ساهمت في خلق ظروف ولادتها. ولابد أن يسبق الحديث عن المذاهب الدبية تعريف كافٍ بالنهضة الأوربية.

**النهضة ألأوربية:**

يتلخص المغزى التاريخي لهذه النهضة التي اجتاحت أوربا بمختلف أقطارها منذ بدايات القرن الخامس عشر بتحطيم شبه شامل ، سياسي وثقافي لمعسكرين متحالفين منذ العصور الوسطى وتقاسما خيرات البلدان وعقول وطاقات شعوبها وهما : الكنيسة والإقطاع. الكنيسة ممثلة لفكر ديني محافظ قديم يقف ضد مظهر حضاري جديد أو تقدمي وإنساني وباسطة سلطانها الروحي والعقلي على أتباعها في قيود ظلامية لا يمكن التحرر منها. والإقطاع كنظام اقتصادي يقوم في غالب نشاطه الإنتاجي على السخرة أو الأجور الزهيدة للفلاحين من قبيل مأواهم وطعامهم مقابل العمل الثقيل لساعة طويلة فارضاً عليهم عبودية تتقاطع مع آدمية الإنسان وكرامته. والمعسكران تقاسما الخيرات وتحكمت بمصائر الناس والأرض وكل الخيرات حالا دون أية إمكانية للتطور والتحرر.

عصر النهضة قام بإحلال ثقافة جديدة مناقضة للثقافتين المذكورتين أعلاه. ثقافة إنسانية جديدة تعدّ أحد أكبر انعطافات الفكر البشري على طول تاريخ الإنسانية الطويل. وما كان لهذا الإنجاز التاريخي أن يتحقق لو يقم على بع رجال عباقرة كبار ومفكرون ذوو غايات سامية وتصميم عالٍ. وبالتأكيد فإن هؤلاء الرجال كانوا قد ذوو اهتمامات ومواهب واختصاصات متنوعة شملت كل مناحي الحياة الفكرية والثقافية والسياسية.

وإذا كان هؤلاء المؤرخون يختلفون فيما بينهم في تحديد ماهية وحيثيات مفهوم عصر النهضة فانهم يتفقون على أن تاريخ شعوب أوربا ينقسم إلى:

1. العصر الكلاسيكي القديم ويقصد به عادة بتاريخ الإغريق والرومان العتيق.
2. العصر الوسيط الممتد بين اتشار المسيحية في أوربا ونهاية القرن العصر السادس عشر أو السابع عشر.
3. العصر الحديث.

وأن العصر الوسيط , هو الآخر , ينقسم إلى قسمين : العصور الوسطى القديمة والتي يمكن اعتبارها عصور السيطرة المطلقة للكنيسة وتعاليمها وقيودها ونظرتها الميتافيزيقية الغيبية والأخروية مع إهمال للحياة الدنيوية , والعصر الوسطى المتأخرة التي اتسمت بالنهضة ومحاولات التجديد الواسع النطاق. لكن لا يمكن القبول بالإنتقال المفاجئ بين العصرين أو مرحلتي العصر الوسيط دون وجود مرحلة وسطى تكون قد حملت في طياتها بقايا النظام القديم وبشائر العصر الجديد الذي نتفق على تسميته بعصر النهضة. هذه المرحلة الوسطى هي معطى فلسفي واقعي إذ لا يمكن إلا أن تكون هناك منطقة وسطى بين المنطقتين , وفي أي علم أو مجال كان , تتحقق فيها ولو بعض من شروط التوازن بين سمات المرحلة السابقة وسمات المرجلة اللاحقة. في حالة المرحلة الوسطى في التاريخ الأوربي – أو غيره – فإنها وازنت بين ثقافة الكنيسة ( الميتافيزيقيا – الغيبية – الماورائية – الأخروية – الروحانية وغيرها ) ومعطيات العصر القادم والحديث ( المنهج العلمي , النظرة الشمولية , الواقعية , الإنسانية , نزعة التماهي مع الطبيعة , العقلانية غيرها ).

لكن مؤرخاً كبيراً مثل أرنولد هاوزر يرى – وهو صائب في هذا - أن نقطة التحول الحقيقية بدأت في القرن الثامن عشر , ولعله يشير إلى الممهدات الكثيرة والجوهرية التي هيأت لقيام الثورة الفرنسية الكبرى عام 1798والى التغييرات الكبيرة التي أحدثتها هذه الثورة بعد قيامها والتي انتشرت في كل أنحاء أوربا , وانتصار الفكر الكلاسيكي المتجدد لذلك نراه يقول أن : "العصر الحديث يبدأ حقيقة مع عصر التنوير , ومع فكرة التقدم , ومع التصنيع ".

ويقف المؤرخون على تفاصيل الظروف والعوامل التي أدت في المرحلة الوسطى هذه إلى انتعاش الطبقة البرجوازية وكيفية تجميع الثروات في أيادي أبنائها , ومعلوم أن هذه الطبقة هي التي قادت النضال ضد الإقطاع وضد ثقافته وسبل ووسائل الإنتاج التي استخدمها متسبباً في دوام التخلف وعرقلة التقدم. وبعد انتصار البرجوازية انتقل الثقل الإجتماعي من الريف إلى المدينة وانعكس هذا على العلاقات الإجتناعية ومن ثم على الحياة الفكرية والسياسية ومنها إلى الفن والأدب والفلسفة وما شاكل ذلك. ويضرب المؤرخون مثالا فن الكاتدرائية الذي كان فنّاً إرستقراطياً نخبوياً محصورا في الأديرة والكنائس صار فنا برجوازيا بمعنى اتسعت ساحته الإجتماعية وتأثيراته وانعكاساته. كما ازدادت أدوار لتجارة بتحسن الصناعة واتساع الزراعة وغدا للتجار ذوي التوجهات العلمانية مكانة أكبر وساهموا بالحياة الإقتصادية والثقافية بشكل أوسع وحتى انهم بنوا الكاتدرائيات الكبيرة. في مقابل كل هذا تضاءل دور رجال الدين اجتماعيا وثقافيا وبالتالي سياسيا أيضاً. ويبدو أن هذا هو قانون التطور في كل المجتمعات.

وثقافيا فإن البعض يؤرخ لعصر الفروسية وما يرافقه من ثقافة وسيوك وأصول وقواعد من العصر الثالث عشر الميلادي اي منذ لحظات التقاء المرحلتين ألأولى والثانية للعصير الوسيط. هذه الثقافة التي راحت تزيح من أمامها غلواء الثقافة الإقطاعية وانغلاقها بوجه عامة المجتمع. والحقيقة فإن ثقافة الفروسية كانت مرحلة وسطى هي الأخرى بين الثقافة اٌلإقطاعية والثقافة البرجوازية الجديدة ذات الرؤى المتحررة والمتفتحة للحياة وللفن وللمجتمع. ولعل أبرز التفافة للبرجوازية في هذا المفصل التاريخي أنها صبغت الثقافة بطابع دنيوي واقعي بعد أن كانت ثقافة غيبية وماورائية تترفع عن كل ما هو ملموس ومحسوس وتقدس كل ما الروحانيات والقصص الديني. وبفضل هذا انتهى الفن من أن يكون ذا لغة خاصة ضيقة محصورة بالواصلين كما قال عنهم أرنولد هاوزر . ( جميل ص 14) بل اصبح الفن منفتحا وخطابه موجها إلى الجميع. وانعكس هذا كله حتى على الديانة المسحية التي لم تعد عقيدة القساوسة والمتفرغين للأديرة والكنائس بل غدت ديانة جماهيرية بحيث راح الإهتمام ينصب على جوانبها الأخلاقية والآداب العامة بدلا من الشعائر والرقي المغلقة والطقوس المبهمة. وفي هذه الفترة بالذات انتج دانتي عمله الفني الكبير والشهير " الكوميديا الإلهية " والذي استبق به كل القيم الفنية الجديدة.

والتجارة وما تحتاجه من علوم ومعرفة وعلاقات وشروط تبادل وبيع وشراء كان لها دور بارز في تطوير في زعزعة التعصب العقائدي الذي فرضته الكنائس المحلية , وأدت التجارة ايضا إلى إدخال تحسينات جذرية في مناهج التعليم الضروري للتاجر من علوم مختلفة وهذا ما حرره من وصاية الكنيسة الروحية والثقافية والعقلية. وإذا كانت مناهج التعليم تحت سطوة القساوسة تعتمد على النحو والبلاغة في النصوص الدينية حصرا والتراثية فإن المناهج الجديدة اقتضت واستجابة للظروف الجديدة وحاجات العنل الجديد تعلم اللغات الأجنبية وربما الرياضيات وغيرها.

والشعر , وتحديدا شعر التروبادور , كان كما يرى الكثير من المؤرخين له دور في إحداث التحولات الجديدة العميقة بروج عصر النهضة في ميدان الأدب. لقد كان هذا الشعر علمانياً رافضاً لثقافة الكنيسة وسلطانها الروحي الكهنوتي والزاهد بمباهج الحياة حاجات الإنسان الإجتماعية والشخصية. لقد تحول الشاعر من هاوٍ ديني عقائدي يردد شعره في الكنائس إلى ىشاعر دنيوي يؤدي دوره أمام المجتمع على المسرح الأدبي أو في المنتديات ويعالج مواضيع حياتية دنيوية يومية جديدة. هذا الأمر وانتشار الشعر وارتفاع مكانة الشعراء وتأثيراتهم هو الذي دفع بالملوك والأمراء إلى النافس على جذب الشعراء والفنانين إلى بلاطهم وكسب كدهم بشتى السبل. من هنا بدأت بالإنتشار البطئ أولاً ومن ثم غدت ظاهرة واسعة ومعروفة في الأدب تسمى " شاعر البلاط". كما برزت في مقابل شعراء البلاط ظاهرة الشعراء الجوالين الذين لم يحظوا بمرتبة شاعر بلاط فراحوا يكتبون وينشدون لعامة الناس. وتطورت المكانة الإجتماعية وحتى السياسة لشعراء البلاط فصار بعض منهم معلمين ومستشارين للملوك وهؤلاء الشعراء هم الذين أسسوا لظهور الأجيال اللاحقة من شعراء النهضة فكانت له صلة بأداب الذوق السليم واصول السلوك في القصور وشرف الفروسية ومهدوا لمكانة راسخة للشعراء في المجتمع والحياة العامة.

ويعبر المؤرخون عن اعجابهم بالكيفية التي اتيقظ فيها الفن التشكيلي بشكل عام والتزم بما سميت بـ "النزعة الطبيعية" في الفن المتنثلة بإحساس بالأشياء العادية بالحياة اليومية وتفاصيلها وكيف أن الناس بدأوا يلاحظون بسرعة ويرون الأشياء رؤية صحيحة ويجدون لذة فيما هو عرضي ثانوي. لقد تحقق هنا انتقال مفاجئ للفن من حالة لم يكن ينظر فيها الى الجنس البشري إلا في كليته واطراده ولا يميز بين الناس إلا تبعا لكونهم سينعمون بالخلاص السماوي أو ستلحق بهم اللعنة , ويتجاهل كل الفوارق الفردية الأخرى على أساس أنها خارجة تماما عن الموضوع إلى حالة مختلفة كل الإختلاف وتؤكد الفردانية وتحاول الوصوصل إليها بكل شكل. (جميل 18 )

وهنا تكمن اشد ملاحظات مؤرخي الحضارة وأكثرها جوهرية وهو أن فن العصور الوسطى الأولية كان فنّاً منحازاً إلى جانب الروحي والديني والغيبي فقط وكان يرفض اية محاكاة ااواقع المجرب المعاش يوميا وكل تحقيق بواسطة الحواس.( 19 ). أما في العصور الوسطى المتأخرة فقد حل محله فن يجعل صحة كل تعبير , متوقفة على المطابقة بينه وبين الواقع الطبيعي المحسوس. وصارت الطبيعة ذات روح شفافة وغنية وملهمة بعد أن كانت مفارقة لها نهائياً.

لقد قام عصر النهضة على مبدأ الصراع الحاد بين هذه القيم: العلم والفلسفة والعقيدة والسياسة والعلاقات الإجتماعية الأمر الذي انعكس مباشرة على ألأدب والفن وكل أنواع النشاط الإبداعي مثل الشعر والرسم والفن. وستكون التطورات اللاحقة مستندة على هذا الصراع وعلى نتائجه التي ترسخت كعطاء تاريخي لا رجعة عنه شكل هوية العصور اللاحقة بعده مباشرة وأسس لإنجازات قادمة شكلت طفرات كبيرة في تاريخ الفن والأدب.

وإلى هذا الأتجاه , التأثر بالطبيعة ونقلها الى الفن والأدب يرجع مؤرخون مثل بوركارت Burckart أهم عوامل النهضة والإنبعاث في هذا النشاط الإنساني وإلى التحول إلى الواقع التجريبي وكشف العالم الواقعي والإنسان وأحاسيسه وحاجاته. ومن الطبيعي أن يقود هذا كله إلى أن يتطور العلم فيصبغ الثقافة والبحوث والتجارب وتغدو لنزعة مطابقة الطبيعة مناهج متميزة وشمولية في الرؤى والتطبيق. ولهذه النتائج التي أفرزتها هذه النزعة يعزي أرنولد هاوزر اسرار تطور عصر النهضة. والحقيقة أن ما قصده هاوزر هو ناجم عما قصده بوركارت لكن معطيات تنبع عن الأخرى ولكل مؤرخ وجهة نظر. فالمبدع الفنان اصبح ملاحظا للطبيعة ومتأثرا بها إلى حد ان العمل الفني اصبح اشبه بدراسة للطبيعة وتسجيل وتحليل لها.

ومن ناحية أخرى فقد طرأت وبفعل التغييرات الثقافة والفكرية التي أحدثها عصر النهضة تغييرات موازية وضخمة أضا في كل البنية الإقصادية للشعوب الأوربية , التي تحققت بشكل أوضح في القرن الخامس عشر وتمظهرت في لإاغاء نظام العبودية واستتبع ذلك الغاء نظام السخرة الذي كان من أهم سمات العلاقات الإقتصادية اللا إنسانية للنظام الإقطاعي. واعتمدت النقود معياراً لتنظيم العلاقة بين الفلاحين وملاكي ألأراضي , والإنتقال التدريجي من نظام الورشات والعمل اليدوي إلى المعامل الكبيرة , والإكنشافات الجغرافية الكبرى , وما استتبعها من تطور التجارة الخارجية التي هيأت للسياسة الإستعمارية لاحقاً. هذه الإنجازات حدد للبرجوازية موقعا اجتماعيا قويا محلياً أولاً ومن ثم عالمياً حيث استطاعت أن تشكل قوة عالمية متحالفة مع أجزائها في كل البلدان الأوربية مستحوذ ليس فقط على السلطة الإقتصادية بل وهلى السيادة السياسية أيضا.

وانعكس على كل هذا على التركيبة الإيديولوجية والعقائدية والرؤى الفلسفية التي اصبحت اكثر واقعية واتعمدت في بحوثها على الموقف الإنتقادي والمسند بالأساس على العقل والخبرة العلمية والعملية وهذا كله هو الذي أسس للفلسفة الحديثة فلسفة ماركس وقبله ديكارت وكانت وسبينوزا وغيرهم وكذلك مهدت للكشوفات العلمية والتقنية الحديثة. لقد أنتجت هذه العطاءاتت على افكار واعمال مجموعة كبيرة من الشخصيات العظيمة الذين استطاعوا جميعا وبمحتلف اهتماماتهم واختصاصاتهم أن يستوعبوا ويتناولوا مختلف مناحي الحياة الفكرية والفلنية والعلمية والفلسفية واٌلإقتصادية. لقد اصطلح على هؤلاء بتسمية: "الإنسانيين" الذين رفعوا من قيمة ومكانة الإنسان إلى حيث لم يكن يتمتع بها سابقا.

والموقف من الدين هو ألاخر يشغل حيزا من اهتمام مؤرخي عصر النهضة. فلا شك أن التنويريين من النفكرين والأدباء وجدوا في مبادئ عصر النهضة عوناً كبيرا في نضالهم ضد تحالف الكنيسة والإقطاع والحكم المطلق. منهنا جاءت سوء فهم مفاده أن الحركة التنويرية كانت ذات طابع إلحادي وآخر طابع معادٍ للسلطة بشكل مطلق. وربما كان فولتير يعتبر ان الطابع اللاديني لعصر النهضة هو السمة الجوهرية له وربما الى يومنا هذا ظلت هذه الفكرة تلازم الكثيرين من الدارسين أو المؤرخين. في حين ان الحقيقة أن التننويريين ورجال عصر النهضة كانوا يمثلون تيارا مضادا للمهنوت وللروح المدرسية والروح الزاهدة لكنه لم يكن عصرا شكاكا بأي معنى أي أنه لم يكن ينفي وجود الخالق ولا ملحدا كما يرى هاوزر.

كما ان السلطة بما انها هي قوة حكم تسلط وإجبار تعرضت للنقد كفهوم بشكل عام لكن لا يبغي فهم هذا الأمر بما يفيد أن الهجوم على الكنيسة أو رجالها بل كان من تحصيل الحاصل أن تتضاءل سلطتها إزاء التطورات السياسية والإقتصادية والإجتماعية الجديدة وآثارها الفكرية والثقافية. لقد تبدلت السلطات فجاءت واحدة لتحل محل القديمة دون ان تلغيها بالكامل لكنها بلا أدنى شك اضعفتها وزعزعت مكانتها وحررت الكثير من الخاضعين لها. من هنا يقتضي الأمر الإشارة إلى أن التحرر الفكري انعكس على انتشار فكرة النزعة الفردية وفكرة المزعة الحسية أو الشهوانية وانبعثت فكرة الإستقلال الذاتي للشخصية ورفض النزعة الزاهدة في الحياة والتي سادت ثقافة العصور الوسطى وكذلك فكرة تمجيد الطبيعة وإعلان الدعوة إلى الإستمتاع بالحياة و ما سمي بـ " تحرير البدن".

ومما لا شك فيه فإن على الصعيد السياسي تحققت وعلى يد عصر النهضة لا سيما المرحلة المتأخرة منه الاهداف كبيرة منها نشوء الدول ذات الطابع القومي المستقل الذي يتعارض مع مع شمولية النظام الأوربي الواحد الذي ميز الحياة السياسية في كل اوربا خلال العصور الوسطى المتقدمة. وهذه الدول الجديدة تسببت بتغييرات هائلة على الصعيدين : مفهوم وتطبيقات السياسة وعلى اللغات الأوربية.

لقد قامت دول لم تكن موجودة من قبل رغم أن حدودها او على الأقل هويتها القومية كانت موجودة ممثلة بشعبها ولغته وثقافته وأدبه وسلطاته. ولقد نجم عن قيام هذه الدول واستقلالها عن غيرها ولادة مفاهيم وتطبيقات جديدة تتعلق بالسياسية والعلاقات والإقتصاد والتجارة وغيرها. لقد زعزت هذه الدول مبادئ التمظيم السياسي بشكل عام. ففي النظام القديم كانت السياسة مجالا محصورا على نخب واعداد قليلم من الأشخاص لهم ميزات نخبوية معينة ويتكتعون بثقة الأمير او الملك , اصبحت ألآن شأنا عاما يمارسه الجميع ولعل هذا هو أحد اهم معاني الجمهورية في التطبيق ( 205 النظام القديم ). وامتدت السياسة لتغطي جوانب اجتماعية تتبناها الدولة من مثل رعاية الفقراء ولحفاظ على حقوق الفرد والإهتمام بالتعليم وغيرها من فعاليات كانت ستبقا من اختصاص الكنبيسة أو الأفراد المتمكنين مادياً. كما أن الظاهرة الجديدة التي لفتت انتباه المؤرخين هي المناقشات السياسية العامة للقرارات السياسية والمواقف والأفكار. إلى حد أن بعد الثورة الفرنسية مورس الإستفتاء الشعبي والإنتخابات من ذلك انتخاب الجمعية العامة الني تعادل في يومنا هذا البرلمان.

يقابل هذا اهتمام خاص باللهجات المحلية التي تحولت مع مرور الزمن إلى لغات قومية منفصلة عن بعضها بعد أن جمعتها سابقا اللغة اللاتينية. ففي فرنسا مثلا صدر عام 1539 مرسوم ملكي يقضي باستخدام اللغة الفرنسية في المحاكم وفي جميع المعاملات الرسمية والخاصة أيضا. وصبحت اللغة الفرنسية لغة الشعائر الدينية والطقوس والمناسبات الدينية في الكنائس. ثم راح يتعاظم عدد الكتب العلمية والأدبية المطبوعة باللغة الفرنسية لتزاحم بذلك اللغة اللاتينية التي انزوت مع الزمن لطب لتبقى لغة محصورة بمجلات ضيقة جدا مثل الطب والصيدلة.

وأدى تطور اللهجات المحلية ونشوء اللغات القومية المنفصلة عن غيرها , مع ما يرافقها من آداب وفنون إضافة إلى الحدث الأهم وهو قيام دول قومية مستقلة ذات سمة عرقية وقيام نظم ملكية انتقلت تدريجيا ً إلى نظم حكم مطلق أدى إلى نشوء آداب قومية مستقلة متطورة داخل كل بلد أوربي على حدة ومستقل عن آداب وفنون الدول الأخرى , ثم راحت هذه الآداب تتطور لوحدها اعتماداً على تجاربها الخاصة ومشاكلها المختلفة , تطورت

ضرورة مراعاة نوع من التوازن بين القوة البرجوازية الجديدة والصاعدة وبين القوى الإقطاعية القديمة والتي بالرغم من أنها بدات بمغادرة التاريخ إلا أنها لا زالت تملك من القوة والتأثير ما يجعلها في حسبان الأنظمة الحاكمة. وعلى الرغم من هذا التوازن غير المستقر وربما بسبب عدم استقراره ونظرا لحدة الصراع بينهما من دولة إلى أخرى انعكس ذلك على مستويات طور الأدب والفن في كل بلد على حدة وكذلك أثرت على تطور هذا المذهب أو ذاك وتحديد مصيره ومديات تطوره أو عرقلة هذا التطور.

ويسجل المؤرخون أن الحكم في البلدان الأوربية تحول إلى استبدادي وهو مستمر في لعبة التوازن بين البرجاوزية وقوتها وآدابها وفنونها من جهة وبين ألإقطاع وربما بقايا الكنيسة أيضا , ولذلك فلقد شهدت اوربا نوعين من الأدب والفن. الأول هو الأدب البلاطي ومرتبط بظاهرة شاعر البلاط يسعى إلى ترجمة المثل العليا الأرستقراطية المحافظة , التي كانت تتناغم مع حاجات هذه الشريحة النخبوية العالية المقام وتطلعها إلى الثبات والإستقرار والتوق إلى الأفكار الأخلاقية والاتسام بالوقار , أدب يسعى إلى كبت الإنفعالات وضيط النفس , وكبت الإلهام والتلقائية , وباختصار جاء أدب البلاط تجسيدا للهدوء والاستقرار الذي تتطلع السلطات إلى تحقيقه في الحياة وهي تنظر إلى الماضي كمصدر أمان وامتيازات واطمئنان وتنظر إلى المستقبل بكثير من القلق والشك والحذر. من ناحية ثانية كان هناك ما يمكن تسميته بالأدب الشعبي والفن الشعبي الذي اتز بنزعته الإنفعالية والعاطفية البرجوازية وبالتلقائية والإلهام والنشوة وبحرية التعبير عن المشاعر وقوة الشخصية واستقلالها وتفردها وتحررها من أية قيود , أدب يعبر عن حاجات جماهير الشعب الواسعة تطلعاتها نحو حياة أفضل ومستقبل يسوده العدل والخير والانسجام والتآخي بين الناس. إن ابطال هذا الأدب وشخصياته الاساسية والثانوية خصوصا تنتمي إلى عصر النهضة وحراكه الصاعد ( انظر مثلا اغلب شخصيات أدب شكسبير ) ويحملون سماته وويعبرون عن جوهره وتتحقق في سلوكهم ملامح المرحلة الإنتقالية التي يحاول القديم الحفاظ عليه والتمسك به ويحاول الجديد الإفلات منها والتخلص من ثقلها وقيودها. تلك هي السمات المشتركة للآداب والفنون الأوربية عامة ومع ذلك راحت تتطور آداب الشعوب بشكل منفصل حتى تشكلت سمات خاصة بكل أدب منها على حدة.

وباستمرار التقدم ومع تعمق الصراع بين القديم والجديد انتصر الجديد وتشكلت مذاهبه وأشكاله وأنظمته الفلسفية وفي هذا الصدد لابد من ذكر أن هذا التطور إنتهى بانتصار شامل للبرجوزية وانظمتها الفكرية والأدبية المتنورة. ولابد أيضا من ذكر ما للثورة الفرنسية عام 1789 من دور في التغييرات الجذرية التي حدثت في كل بلدان اوربا التي انتقلت إليها شررارتها وأدت إلى هزات كبرى تمخضت عنها آداب ومناهج وأنظمة قكرية تسببت هي الأخرى في ولادة مذاهب أدبية وفنية عديدة.

ومن أهم ميزات الآداب والفنون في أوربا منذ عصر النهضة إلى يومنا هذا هو توزعها على مدارس وتيارات اصطلح على تسميتها بالمذاهب ألأدبية التي هي عبارة عن توجهات فكرية فلسفية يشكل الكثير منها عقائد يؤمن بها أتباعها ويبحثون لها عن منافذ عملية وتطبيقية في الحياة اليومية , ومنها من هي أصلا ذات بعد فلسفي سياسي وأخرى اجتماعي وغيرها فني صرف. من هذه المذاهب : الكلاسيكي والرومانسي والواقعي والواقعي الإشتراكي والوجودي والطبيعي والبرناسي وغيرها مما سنقف عليه بالتفصيل في الفصول اللاحقة.

**النهضة العربية:**

لقد مرت الثقافة والفنون والآداب العربية بفترات من الرقي والتألق والإنتشار ما جعلها مركز اهتمام الباحثين والمؤرخين من مختلف أصقاع الأرض ومراحل تاريخ البلدان وثقافاتها , ويناسب هذا الوصف الأدب العربي في مرحلة ما قبل الإسلام , ومرحلة صدر الإسلام , والعصر الأموي , والعصر العباسي , والعصر الحديث. كما انتكست هذه الثقافة والآداب والفنون تأثراً بالوضع السياسي العام وبانتكاس البلاد العربية حين احتلت ودمرت من قبل التتار المغول بعد سقوط الدولة العباسية.

فلقد دخلت الحياة الثقافية عامة والأدبية , على وجه الخصوص للعرب , في ما يسميه المؤرخون بالسبات العميق والطويل منذ أن احتل بلدانها التتار بقيادة هولاكو عام 656هـ ولمدة تجاوزت الخمسة قرون. والسبات تمثل في تمزق أوصالها وتعطل عطائها الثقافي وألأدبي. لكن اللغة العربية استطاعت ان تستمر بفضل القرآن الكريم الذي أدى دوراً آخر خطيرا جداً وهو أنه حافظ ايضا على عوامل الصلة بين ابناء الامة العربية واستمرار الاتصال بينهم وبين شعوب البلدان الإسلامية الأخرى. وقد استمرت حالة التدهور هذه حتى نهايات القرن الثامن عشر الميلادي بدايات القرن التاسع عشر الذي شهد بدايات تغيير كانت وراءها أحداث سياسية وعوامل فكرية وأسباب علمية انتهت في منتصفه بيقظة أدبية وفكرية وسياسية حققت الكثير من تطلعات الناس ولا سيما المثقفون منهم. لقد أتت هذه الحركة بكثير من النتائج الإيجابية في نهايات القرن التاسع عشر بفضل تصدي المصلحين من الأدباء والمفكرين لمهمة التغيير الذي أصاب الأدب بالذات أمثر من غيره من النشاطات المعرفية الأخرى , وسميت هذه التغييرات الإيجابية بالنهضة العربية.

ومؤرخو ألأدب العربي عندما يستخدمون تعبير " النهضة " يقصدون الحقبة الممتدة من بدء الحملة الفرنسية على مصر سنة (1798) حتى الحرب العالمية التي انتهت بأن أصبحت أكثر البلدان العربية تحت سيطرة الأستعمار الغربي المباشر. فقد استولت بريطانيا على العراق وفلسطين وشرقي الأردن سنة ( 1919) , واستولت فرنسا على لبنان وسورية بموجب اتفاقية سايكس بيكو في نفس السنة. واستولت أيطاليا على لبييا. وكانت بريطنيا قد استولت على مصر منذ عام 1882 وضمت إليها السودان. وأخضعت تونس للماية الفرنسية سنة 1908 والمغرب عام 1912 والجزائر كانت محتلة منذ العام 1832. ولم يبق غير اليمن والسعودية ( نجد والحجازآنذاك ) هلى حين أخضعت المناطق الممتدة على الخليج بدءاً من الكويت حتى سلطنة عمان وباب المندب للإحتلال البريطاني قد احتل قبل هذا الوقت بزمن قصير.

ويفهم البعض من المؤرخين للأدب وقضية العلاقة بين غزو نابليون لمصر والنهضة العربية وللثقافة على طريقته السردية فيقول :" أن الصدمة التي احدثتها وصول مدافع نابليون الى شواطئ الإسكندرية ودمياط والقاهرة كانت بمثابة المنبّه الذي ايقظ الشرق العربي من سباته الطويل العميق". ويضيف :" ذلك السبات الذي جعله في غفلة تامة وفي شبه عماء مطلق عما كان يجري وراء البحر الأبيض المتوسط , فقد فوجئ المصريون عامة, والنخب المثقفة منه خاصة , بأدوات جديدة ووسائل عصرية يجهلونها استخدمها الغزاو في الحرب فكانت الغلبة بسببها من نصيبهم لا من نصيب المصريين". ( ص 28 النهضة ).

إن في هذا الكلام تسطيح لإشكالية كبرى تتمثل في انعطاف حضاري وتاريخي في آن واحد. إن الأمر هنا يتعلق باحتكاك حضاري عميق وليس بصدمة خلقتها المدافع. ويتعلق بعبور حاسم لمرحلة تاريخية فرضته ضرورات ذاتية صارمة وأخرى موضوعية قاهرة. وفي هذا الكلام تناسٍ تام لعدد من الإنتفاضات الشعبية قام بها الشعب المصري ضد السلطات العثمانية من أجل الإستقلال والتحرر ورفع الضيم والظلم عنه. ففي سنة 1784 شعد مصر انتفاضتين اثنتين , ألأولى في الإسكندرية والثانية في القاهرة. وتكررت انتفاضة القاهرة عام 1785 وفي عهد ولاة مصر ابراهيم بك ومراد بك قبيل مجئ نابليون في حملته الشهيرة. هذا شئ هن الجانب الذاتي. ومن ناحية موضوعية أخرى فإن العنصر الحضاري الذي رافق حملة نابليون كان ضروريا جدا للمصريين وللعرب كي تندفع تطلعاتهم نحو حضارة وتحرر ومعرفة إلى الأمام خطوات كبيرة. وواحدة من مظاهر التلاقح الحضاري الكبير هو المجمع العلمي المصري الي اسسه نابليون عام ( 1798 ) على غرار المجمع العلمي الفرنسي الذي سبق واشرنا اليه أثناء حديثنا عن الرومانتيكية في فرنسا ونضالها ضد الكلاسيكية.!!!!! ( للتأكد )..

ويمكن أن نشير هنا إلى حدث يبدو في ظاهره بسيطاً لكنه كان ذا قيمة فعلية كبيرة , وهو توزيع قوات نابليون لمنشور ورقي مطبوع وبآلاف النسخ ومكتوب باللغة العربية وفي عدة مدن مصرية الأمر الذي كان له اثر كبير في النفوس وفي العقول في آن معاً. في النفوس لأنه خاطب القوم بلغتهم وحدثهم عن حاجاتهم وتطلعاهم ووعدهم بتنفيذها من بينها مشاركتهم في المناصب العليا وانهم أحرار ومتساوون وان لا شئ يفرق بينهم عدا العقل والفاضئل والعلوم فقط. وراح البيان في المنشور يحرض المصريين ضد حكم المماليك. ثم اصدر نابليون جريدة باللغة العربية واصبح معلوما انه جاء ليبقى وليقطع الطريق على تجارة بريطانيا. وهذا هو أحد ألأسباب الحقيقية لاحتلال مصر وكل الإجراءات الي قام بها نابليون فيها إنما لتبرير بقائه وأرضاء أهلها وأقناعهم.

قد تكون فعلا الحملة الفرنسية على مصر هي إحدى عوامل النهضة لكنّي أرفض الفهم السطحي لهذا العامل الفعال وأقول أن ما جاءت به الحملة من وسائط وعوامل هي التي يمكن اعتبارها من عوامل النهضة وليست الحملة بذاتها.

**عوامل النهضة:**

الطباعة ومضامينها:

وصل نابليون مصر ومعه مطبعة باللغة العربية كانت قد استخدمت في روما منذ عام ( 1514) لطباعة الكتب الدينية المقدسة وارسالها الى المشرق مع المبشرين بالديانة المسيحية. والحقيقة أن أمريكا كانت قد أنشأت ايضا مطبعة في بيروت عام (1834) لطباعة الكتب العلمية عندما أنشأت الكلية الأمريكية هناك وتطورت فيما بعد لتصبح الجامعة الأمريكية في بيروت. ومن الطبيعي أن يستقدم نابليون معه الفنيين الذين يجيدون الطباعة باللغة العربية ومن بينهم كانوا لبنانيين. إلى هنا ونحن نتحدث عن آلات وأدوات يتهم البعض انها هي التي ابهرت العرب وأيقظتهم.

في الحقيقة أن الذي أثر على الثقافة العربية آنذاك ليست الآلات بل ما أنتجته هذه الآلات من مضمامين وأفكار بدت جديدة وتختلف عما هو سائد في الثقافة العامة آنذاك. هنا يكمن أساس التغيير. وتحديداً التغيير نحو الجديد والأحسن. فالمطابع وهي تخضع لمن يوجهها يمكنها أن تنتج تخلفاً ظلامياً يعود بالمجتمعات نحو حتى ما قبل القرون الوسطى. ويمكنها ايضاً أن تنتج فكراً تنويرياً هائلاً يقود نحو ثورات ثقافية حاسمة وتغييرات جذرية عميقة. ولعل من ألإنجازات المهمة هنا إصدار صحيفة عربية بإسم " التنبيه " ويسجل عام 1800 تاريخ أول اعدادها. لكن بعد رحيل الفرنسيين عام 1801 عن مصر توقفت المطبعة عن العمل حتى أن أنشأ محمد علي والي مصر عام 1821 مطبعة لتغطية حاجات الحكومة وتحقيقا لسياسة نشر العلم والمعرفة فاشترى مخلفات مطبعة نابليون وزاد عليها واستقدم فنيين من لبنان وسميت بالمطبعة ألأميرية أو مطبعة بولاق بنسبة إلى الحي الذي أنشأت فيه.

هذه المطبعة كان لها تأثير مباشر واقوى بكثير من مطبغة نابليون لأنها راحت تطبع صحيفة " الوقائع المصرية " الت يظهر عددها الأول سنة 1828 والتي اهتمت بنشر اخبار الحكومة وبياناتها واهتمت بالسياسة والأدب وتولى تحريرها كبار كتاب مصر مثل: الشيخ حسن العطار , ورفاعة الطهطاوي , والشيخ محمد عبدة واحمد فارس الشدياق. ( مصدر ). لا شك أن كتّابا كبارا مثل هذه الكوكبة من العلماء والمثقفين لم كن كتاباتهم إلا أعمدة تنوير وتوعية , ونتحدث هنا عن مضامين كتاباتهم لا عن الأجهزة والورق وشكل الصحيفة.

وانتشرت الطباعة في البلدان العربية ألأخرى إلى جانب مصر ولبنان جعءت سوريا وفلسطين الي ظهرت فيها الطباعة لأول مرة عام 1830 وبلغ عدد المطابع فيها ثلاث حتى عام 1850 وراحت تطبع هناك الكتب والصحف. كما انشأ صحفيون مطابع خاصة غير حكومية. كما عرفت الأردن مطابع في وقت متأخر نسبياً. وانتشرت المطابع في الأردن والمغرب حيث صدرت أول صحيفة بإسم " المغرب" منذ عام 1889 .

ومنذ عهد الوالي العثماني مدحت باشا ظهرت المطبعة في العراق وكان ذلك عام 1869 وقد صدرت آنذاك أول صحيفة عراقية بإسم " الزرواء " التي عمل في تحريرها الشاعر العراقي الكبير جميل صدقي الزهاوي فأجرى فيها تغييرات دفعت بها إلى مستويات أرقى ثم تسلم رئاسة تحريرها الشاعر معروف الرصافي. وكلاهما شاعر مبدع وداعية للتجديد والتحرر والتقدم. وحين أعلن الدستور في العراق عام 1908 كانت في العراق ثلاث مطابع كبيرة واحدة في الموصل والأخرى في البصرة والثالثة في بغداد.

كما عرفت الحجاز الطباعة منذ عام 1908 حين اصدرت هناك جريدة ( حجاز ) وأنشئت مطبعة في مكة وفي اليمة الذي عرف أول مطبعة منذ عام ( 1879) وفي ليبيا ايضا ( في طرابلس اتحديداً ) في نفس العام أسست اول مطبعة وفي تونس عام 1860 وبعد ذلك بثلاث سنين أنشأت مطبعة في الجزائر.

لقد قامت هذه المطابع في البلاد العربية بإنجاوات ثقافية متميزة مهدت الطريق لنهضة قادمة. فقد عملت على تحقيق التراث وإحيائه عن طريق التحقيق وطبع دواوين الشعراء والكتاب العرب القدامة المعاصرين وكتب دينية وأدبية عامة والخبار والنوادر واللغة والنحو والمقامات الزهد ومجالس أهل الرأي. لقد طبعت مطبعة بولاق ( الأميرية )مثلا كتاب الأغاني والعقد الفريد وخزانة الأدب والبيان والتبين ومقدمة ابن خلدون وغيرها كثير. ويقال أن هذه المصنفات الكبيرة هي التي كانت وراء ريادة محمود سامي البارودي لمدرسة الإحياء وتأسيس تيار كلاسيكي محافظ لكنه متجدد كما سنرى لاحقاً.

لكن دوراً محورياً أدته المطابع للمجتمع والثقافة وهوأنها قامت بطبع الكتب والمناهج المدرسية وكذلك المقررات العلمية الأمر الذي سهل عملية التربية والتعليم في المدارس والكليات وجعلها أعلى مستوً وسهل تناول المادة للطللبة والتلاميذ ولأساتذة في آن واحد. ومعلوم ما لتسريع التعليم وتسهيل الوصول إلى المصادر والمؤلفات والمقررات من اثر في التطوير والثقيف. وانتشرت ايضا الصحف والمجلات وطباعة الدواوين الشعرية والكتب النقدية وغيرها.

ولقد استتبع ذلك كله أن صدرت الصحف على نطاق واسع وفي كل البلدان العربية وأحيانا في أغلب المدن. والحديث عن الصحافة يقتضي الإشارة إلى مضامينها والإستدلال منهاعلى تأثيرها الثقافي والعلمي وألأدبي. فلقد احتوت الصحف على أخبار سياسية يتابعها المواطن والسياسي والمثقف وتضمنت اخبار محتلف البلدان الأجنبية وألأحداث التي يمر بها العالم مما قرب السمافات بين الشعوب العربية وشعوب الأقطار الأخرى , احتوت الصحف على النشاطات الأدبية وما ينشره الشعراء من قصائد والكتاب من قصص قصيرة أو كتابات نقدية واخبار الأدباء وأصداراتهم ولعل بعضها الكثير راح ينشر مواد تسلية وأخبار الفن وما الى ذلك مما حول الصحيفة والمجلة إلى منبر ثقافي تنويري يومي أو اسبوعي.

ومما زاد من قيمة الصحافة العربية آنذاك وعزز دورها التنويري والتثقيفي أن كثيرا منها كان قد أصدرها أو أشرف على تحريرها كتاب وأدباء كبار معروفون ومعتبرون. فمثلاً صدرت مجة الجنان لبطرس البستاني ( 1870 ) ااتي تخصصت بنشر الأدب النثري مثل القصص والروايات , ومجلة المقتطف ليعقوب صروف ( 1887 ) ذات الإتجاه العلمي ومجلة اللطائف ( 1886 ) لشاهين مكاريوس, والهلال التي اصدرها الكاتب الكبير جرجي زيدان عام ( 1892 ) في مصر وانتشرت في كل البلاد العربية وإلى الآن مستمرة على الصدور. وكذلك مجلة الضياء التي أصدرها ابراهيم اليازجي عام ( 1898 ) ومجلة الجامعة التي أسسها فرح أنطون ومجلة فتاة الشرق التي اشرفت عليها الكاتبة المصرية لبيبة هاشم عام ( 1906 ). وفي بيروت مجلة ( سلسلة الفكاهات ) عام 1884 تختص فقط بنشر القصص بإشراف نخلة قلفاظ. وفي مصر اصدر الكاتب المسرحي الرائد إبراهيم رمزي عام 1903 مجلة مسامرات النديم أما في فلسطين فقد أسس الكاتب القصصي الرائد خليل بيدس مجلة النفائس ثم تغير اسمها لتتميز عن مجلة النفائس الأخرى التي اصدرها أنيس عيد الخوري عام ( 1910 ) في بيروت.

هذه المجلات والصحف انتشرت في كل البلاد العربية وكان لها ( مثل مجلة الهلال المصرية ) مشتركون وقراء عرب من كل الأقطار العربية ونشرت الثقافة العربية وساعمت في تشجيع الشعروالشعراء والكتاب من مختلف البلدان العربية , ويمثلها البعض من المؤرخين بالرابطة الأدبية.

لكن من الأدوار الخطيرة التي قامت بها الصحافة العربية آنذاك المساهمة الفاعلة في حركة التحرر العربية وفضح ألإستعمار ودعم الثورات ضده. وهذه مجلة البصائر الجزائرية التي اصدرها الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء المسلمين في الجزائر تعتبر مثالا متميزا في هذا الصدد وفي التصدي للإستعمار الفرنسي وتأليب الرأي العام العربي والجزائري ضده.

ومما لا شك فيه أن الترجمة التي نشرتها هذه الصحف أو التي تبنتها مؤسسات ثقافية بعينها او تلك التي قام بها مترجمون متخصصون بمبادرة منهم قد أغنت الثقافة العربية وعلى الأخص النخب المثقفة. ولا أظنه صحيحا القول أن اغلب هذا التاثير قد جاء في الشعر. لقد دخلت القصة القصيرة والرواية والمسرح والنظريات النقدية إلى جانب الشعر عن طريق الترجمة وكان تأثيرها إذن متنوعا وعلى كافة الأصعدة الثقافية والفكرية بما فيها الفلسفة ( الماركسية والوجودية وفلسفة الشك لديكارت مثلا ). وللشعر حصته المتميزة نعم لكنه لا ينبغي أن يغيِّب الإنجازات الأخرى.

ومن فوائد الترجمة هو تاثر الكتابة العربية التقليدية بالنصوص الجديدة فتخلى الكثير منها عن السجع والزخرفة الفظية والمزوقات البديعية , واغتنت لفتنا العربية بمصطلحات وتحدديات جديدة ذات دلالات مفاهيمية عميقة من بينها الإطلاع على المذاهب الأدبية الأوربية والتأثر بها ونقلها إلى النصوص العربية.

ولعل من الفوائد الكبيرة أيضاً للترجمة شيوع فن المقالة والقصة والرواية بشكل واضح في البلاد العربية نتيجة التأثر بما ترجم من نصوص أدبية. ففي عام ( 1868 ) ترجم رفاعة الطهطاوي رواية فينلون ونشرها بعنوان " دورة الأفلاك في مغامرات تيلماك ". في عام ( 1888) ترجم نجيب غرغور رواية "صاحب معمل الحديد" لجورج أوهنة. و ترجمت حتى عام (1910)أكثر من ست عشرة قصة ألكسندر دوما الأب , وترجم المنفلوطي ( 1951 ) رواية الضحية أو " مذكرات مرغريت " وترجم محمد عثمان جلال عام ( 1872 ) رواية سان بيير بعنوان البول وفرجيني وأعاد ترجمتها فرح أنطون ( 1902 ) وترجمها ايضا المنفلوطي بعنوان " الفضيلة".

ولم تقتصر الترجمة على الأدب بل شملت الكتب العلمية والفكرية والفلسفية كما اسلفنا. فترجم فرج انطون عام 1904 كتاب حياة المسيح وترجم الطهكاوي القانون الفرنسي. وكذلك اهتم المترجمون بترجمة المسرح فنقل اغلب مسرحيات شكسبير خليل مطران وقام بترجمة اعمال عديدة عثمان جلال. وللشعر مكانة كبيرة في الترجمة. فلقد ترجم سليمان البستاني عام ( 1895 ) عملا أدبيا شعريا هائلا وهو إلياذة هوميروس اتي انتشرت بسرعة في اغلب البلاد العربية وأثرت تأثيرا كبيرا في الوسط الأدبي وفي الشعراء العرب. وقد اصدرها مشفوعة بشروح وحواش ومقدمة وبمعجم في آخرها وتبنت أصدارها دار الهلال بمصر عان ( 1904 ). وفي هذا الموضع لابد من ألإشارة الى أمر تاريخي وخطير. فالبستاني واجه مشكل شروط الشكل العربي ومضمونه أوزانه والقافيه فيه وذكر ذلك في مقدمته وكان هذا الأمر هو بداية هامة للغاية لإتجاه التخلي عن القافية الموحدة ( المصدر ص 38 ). وكما قام خليل مطران بترجمة الشعر الأوربي قام أحمد شوقي بتعريب قصائد فرلين على ألسنة الحيوان.

والإنفتاح على الأدب الغربي جاء بثمار من نوع آخر. فلقد كتب شعراء كبار قصائد مستوحاة من الشعر الغربي مباشرة أو قاموا بإعادة صياغة قصائد أو أوربية مواضيع وأفكار لشعراء غربيين مثلما كان مع علي محمود طه وقصيدته بجماليون وقصيدة عمر أبي ريشة ( إمرأة وتمثال ) وكذلك بديع حقي وأحمد زكي أبو شادي. لقد تأثر عمر أبو ريشة بككثير من شعراء الغرب وأشار إليهم في كثير من مقابلاته الصحفية. وتاثر ابراهيم طوقان بحكاية أوسكار وايلد الرمزية ( البلبل والوردة ) وقد سمى قصيدة له بـ (مصرع بلبل) وفيها أكثر من دليل على اطلاع طوقان على النص ألأصلي. ( مصدر 39).

وبالتأكيد فإن الترجمة قربت الشعر الغربي للشاعر العربي ليس فقط نصوصاً بل ايضا رؤىً ومذاهب فكانت هناك الالرومانسية والرمزية والواقعية وغيرها. لكن لا ينبغي أن ننسى أن الكثير من الشعراء العرب كانوا يجيدون لغات اجنبية وخاصة الفرنسية والإنكليزية ففتحت أمامهم فرصة الإطلاع المباشر على آداب هذه اللغات وثقافاتها.

ومثل هذا الإتساع شمل المدارس والتعليم بكل مراحله وازدات البعثات التعليمية. وليس صحيحا أن العرب تأثروا بالفرنسيين حين غزوا مصر وفتحوا مدارس لأبنائهم هناك. العرب كانت لهم مدارسهم منذ زمن بعيد لكنها تطورت كثيرا بعد الإنفتاح الثقافي على الغرب حسبما اشرنا اعلاه من مطابع وصحف وترجمة ولغات أجنبية وغيرها. صحيح أن اغلب مدارسنا العربية كانت قائمة على مناهج دينية وتفسيرية وحفظ القرآن الكريم ولغوية لكنها تأثرت بالغرب واستمدت من مدارسه مناهج ودروسا ومؤلفات وغير ذلك كثير.

وكان للزيارات وألإقامة المباشرة للكتاب العرب والمفكرين في بلدان اوربا الأثر ايضا في الإطلاع على مناهج مدارسهم وأساليب التعليم. " يقسم الزمن على دروس الإنسان, فإنه يتعلم في النهار عدة أمور مختلفة , فيقرأ في االصباح مثلاً التاريخ , ثم بعده درس الرسم مع معلم الرسم ثم بعده درس النحو الفرنساوي ثم بعد درس تقويم البلدان ودرساً مع معلم الخط لتعلم قواعد الكتابة الخ.. " كما يقول رفاعة الطهطاوي. (مصدر 40). في هذا الكلام نفهم أن نظام التخصص بلدروس كان قائما في أوربا في حين كما هو معلوم في الكتاتيب العربية الدينية يعتمد الدرس طيلة النهار على استاذ واحد لكل المواد لأنها كانت كلها متقاربة ومتشابهة. ومن المعلوم أن المدارس الغربية لها أبنيتها الخاصة ونشاطها الترويحي فحاول الطهطاوي نقل هذه التجربة الى مصر ولا ينسى دور مجمد علي في إصلاح نظم التعليم المصرية وعصرنتها. وبالرغم من ان اهتمامه انصب بالأساس على المؤسسة العكسرية لكنه طور التعليم ففتح مدرسة الصنائع ومدرسة الطب والمدرسة الحربية ومدرسة ألألسن وقد أرسل بالبعثات الخارج رجالا ونساءً وكان الطهطاوي أحدهم وهو الذب الّف كتابا بعنوان " المرشد الأمين في تعليم البناتوالبنين", حيث دعا فيه الى ضرورة تعلم المرأة مثلما يتعلم الرجال.

وأنشأ الكثير من الشخصيات المعروفة مدارس أهلية للتعليم منها مثلا مدرسة في عين طورة التي اسسها بطرس البستاني, كما ان الإرساليات التبشيرية أنشأت مدارس خاصة بها وأنشأ المرسلون في لبنان عددا من المدارس والكليات. وسارعت البلدان الأجنبية في فتح مدارس لها لأغراض متباينة , فالكنسية الروسية أنشأت معهدا للمعلمين في الناصرة في مقابل معهد كاثوليكي في بيروتز واهتمت هذه المدارس بتعليم اللغات الأجنبية وفق مناهج حديثة. وهناك مدارس انكليزية حديثة في فلسطين تخرج منها كتاب كبار معروفون مثل الناقد والمفكر الأستاذ إحسان عباس.

ومما لا شك فيه فإن طلبة البعثات الذين درسوا في بلدان أوربا كان لهم أثر بارز في تطور وتقدم الثقافة في بلدانهم العربية ومن بين ذلك الأدب. فالعديد منهم اطلع على شتى مناحي الحياةالثقافية هناك ولا سيما الأدبية وعند عودتهم قاموا بتقل تجاربهم وخبراتهم التي اكتسبوها. وغذا تذكرنا أن عددا غير قليل منهم قد تبوأ أماكن إدارية وسياسية واجتماعية أتاحت له تنفيذ الكثير من الأفكار والمناهج التي تأثر بها في مجال عمله واختصاصه. ولنتذكرمثلا طه حسين الذي درس في فرنسا وتأثر بفلسفة ديكارت ومنهج الشك الذي طبقه طه حسين في الكثير من بحوثه النقدية والأدبية والتاريخية.

والبعض من هؤلاء المبعوثين قاموا بترجمة الكثير من الأعمال الأدبية فأغنوا المكتبة العربية بكنوز ادبية من النتاج الأوربي في المسرح او القصة أو الرواية أو النقد الأدبي وفي الشعر ايضا. وإذا كان محمد حسين هيكل أول كاتب للرواية العربية وقد كتب في باريس روايته الشهيرة " زينب ", فإن أول من كتب المسرحية العربيو كان مارون النقاش الذي تأثر بموليير ومسرحيته ( البخيل ) , وحين عاد إلى موطنه لبنان أنشأ مسرحا ليقد فيه أول عرض لمسرحيته. وتوفيق الحكيم الذي اصبح عميدا للمسرح العربي في زمانه كلن أحد المبعوثين لدراسة الحقوق في باريس. وأحمد شوقي الملقب بأمير الشعراء كلن مبعوثا إلى باريس ايضا ومنهم من ذهب الى روسيا وبريطانيا وغيرها.

هذه الظروف كلها فتحت بابا آخر للتأثير في الثقافة العربية وإغنائها بتجارب غربية كثيرة. فلقد فتحت باب الهجرة والرحلة الى بلدان العالم المختلفة ومنها أوربا وأمريكا وحيث أقام المثقفون المهاجرون العرب قاموا بالدراسة والكتابة والترجمة والـتاليف, ولم تنقطع علاقاتهم ببلدانهم بل امدوها بإبداعاتهم المختلفة. فهذا جمال الدينن ألأفغاني ومثله أحمد فارس الشدياق الذي زار مالطا وألف عنها كتابا ( الواسطة في معرفة أحوال مالطا ) وتجول في ايطاليا وبريطانيا وفرنسا ودول أخرى فكتب عن رحلاته تلك ( كشف المخبأ في عن فنون اوربا ) وكتبا أخرى ومقالت في الجرائد تحدث فيها عن إنطباعاته في رحلته تلك.

ومعلوم أن مارون النقاش كان قد سافر الى ايطاليا ونقل فكرة المسرح إلى الثقافة العربية. وهناك دباء كثيرون سافروا وأقاموا طويلا في اوربا واستفادوا كثيرا من تجاربهم هناك ونقلوها بكتب ومقالات وأثرت كتاباتهم هذه بالنقد الشعر والفن. ومن الأسماء اللامعة في هذا المجال الشاعر أحمجد شوقي الذي أقام في باريس ثلاث سنوات ( 1890 – 1893 ) كتب فيها بعض اشعاره التي أرسلها إلى الصحف العربية من هناك وكتب أول مسرحية له بعنوان " علي بيك الكبير " و وكذلك الشاعر توفيق البكري صاحب كتاب " صهاريج اللؤلؤ " ومحمد عبدة الذي نفي إلى باريس لكنه هناك اصدر صحيفة " العروة الوثقى". ومحمد تيمور كاتب القصة المعروف ومحمد حسين هيكل.

ومن الشعراء الذين اقاموا في باريس عبد الرحمن شكري الذي أسس للشعر الرومانسي العربي وأحد رواد جماعة الديوان التي قادت الحركة الرومانسية ونشرتها , كما سنرى في الصفحات القادمة. وميخائيل نعيمة الذي ارتحل فترة ما الى روسيا.

كما وتشكلت حركات سياسية عديدة حتى قبل صدور الدستور العثماني عام 1908 وكانت ذات اثر بالغ في قيام النهضة الثقافية والأدبية في البلاد العربية. فلقد نشط العرب المقيمون في باريس مؤتمرات عدة تمخض عنها حركات سياسية مثل " العربية الفتاة ,التي كان يراد لها ان تكون جزبا سياسيا وضع في مقدمة أهدافه التخلص من هيمنة الدولة العثمانية والمطالبة بالإستقلال. وقامت حركات سياسية أخرى عديدة تسعى للغرض ذاته ومنها الحركة القومية التي تزعمها الشريف حسين في الحجاز والتيار التحقيق الوهابي الذي سعى الى تحقيق الغرض ذاته لكن على أسس من الدعوة إلى السلف الصالح. وقاد محمد عبدة وجمال الدين الأفغاني نيارا يدهو الى الإصلاح والتقدم عن طريق الحفاظ على التراث ومزجه بالعلم الحديث مع التأكيد على نبذ الإستبداد العثماني وما تلاه من ورثة محمد علي.

وهناك من الكتاب الطليعيين من دعا الى الاٍستفادة من الكشوفات العلمية في اوربا فقام شبلي شميل بترجمة نظرية داروين وجاراه في ذلك فرج انطون الذين كان من أوائل داعة العلمانية في الوطن العربي. أما العلامة ساطع الحصري ( 1880 – 1968 ) فقد دعى إلى تغييرات اجتماعية سياسية ونظام عربي يعتمد على منجزات العلم الحديث ويحافظ على الإنتماء العربي متخذا من اللغة المشتركة والثقافة المشتركة والتراث الواحد اركاناً لهذا النظام. وكذلك شعدت الساحة السياسية انتشارا لأفكار أسست لقيام حركات واحزاب مثل البعش والشيوعية والقومية العربية والتيارات الدينية وغيرها.

وبناءً على كل ما تقدم تمظهرت النهضة الثقافية العربية باتساع كبير لحركة التاليف والنشر الحديث وحركات إحياء التراث وغيرها من إنجازات. لكننا يجب أن نؤكد على ان من التأثيرات الفنية الكبيرة التي لامست الأدب العربي الحديث نتيجة الإحتكاك الحضاري والثقافي مع الغرب هي دخول أشكال فنية أدبية جديدة لم تكن موجودة سابقا في الساحة الأدبية العربية مثل المقالة والقصة بأوناعها والرواية والمسرح النثري والشعري ونظريات نقدية حديثة عديدة.

الحركات الإحيائية في الأدب العربي الحديث.

توزعت جهود النهضة في الأدب العربي شعراً ونثراً على عدد كبير من المبدعين ممن كانوا خارج البلاد العربية أو داخلها وممن دخلوا التاريخ بفضل ما قاموا به من تغييرات كبرى في شكل ومضمون النص الأدبي العربي. وهؤلاء المبدعون الكبار وحسب التزاماتهم الفكرية وقناعاتهم الفنية تم تصنيفهم إلى مدارس ومجاميع أطلق عليها كلها مجتمعةً اسم الحركات الإحيائية في الأدب العربي الحديث.

وهذه الحركات هي:

1- جماعة الإحياء التي اهتمت بإحياء التراث العربي الشعري على وجه الخصوص ومنهم من تمسك بتقليد التراث الشعراء القدامى شكلا ومضمونا ويتقدم هذه المجموعة محمود سامي البارودي ومنهم من اتصف بالإعتدال في الجمع بين التراث والرؤيا الحضارية الحديثة والشروط الأدبية الجديدة ويتقدمهم أحمد شوقي.

2- جماعة الديوان ويتصدرها عبد الرحمن شكري.

3- وجماعة ابولو وفي مقدمتها يقف إبراهيم ناجي.

1. وشعراء المهجر ومنهم جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وأيليا ابو ماضي.
2. ثم حركة الشعر الحر التي كان من روادها بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وصلاح عبد الصبور وعبد الوهاب البياتي.
3. حركة القصيدة المدورة ويعد الشاعر العراقي حسب الشيخ جعفر من روادها ومطويرها.

لكن هذا التوزيع قد يكون مدرسيا وتعليميا أكثر مما هو تحليل علمي وتاريخي. لذلك من المستحسن أن يصار إلى إعادة تصنيف هؤلاء المبدعين إلى مذاهبهم الأدبية مع الحفاظ على الجانب التاريخي لأدوارهم في المنفى أو في الوطن.

**الخلاصة : بين النهضتين:**

لقد خضعت النهضتان في اوربا وفي البلاد العربية إلى تأثيرات فاعلة ولعوامل موضوعية وأخرى ذاتية ساهمت في تأجيج الصراعات التي أدت إلى قيام الحراك السياسي والفكري والثقافي الذي تظافرت أجزاؤه لتشكل بموجموعها الإطار والمحتوى للنهضتين.

وإذا كانت أوربا ونهضتها والثورة الفرنسية والمذاهب الأدبية واحتلال نابليون لمصر ورحيل الأدباء العرب إلى مختلف اقطار اوربا تشكل بمجموعها عوامل موضوعية أثرت في الثقافة العربية ودفعت بها إلى تغييرات جوهرية في أشكالها الأدبية وحتى في مضامينها فإن الكنيسة وسلطانها واإقطاع واستبداده والتراث الموروث من ايام الإغاريق والرومان وقدسيته كلها عوامل موضوعية دفعت بالأوربيين للبحث عن بدائل ثقافية وسياسية تحررهم من ثقل هذا الواقع وقيوده.

لكن الضرورة التاريخية للإستجابة للحاجات الملحة للمجتمع في التطور والإنتقال إلى واقع أفضل يبدأ من الثقافة أولا ويصل الى السياسة في المحصلة شكلت لدى الطرفين العربي والغربي أحد اهم العوانل الذاتية للأنتقال نحو هذا الجديد ولتحقيق هذه التطلعات.

وإذا كانت رحلة المثقفين والأدباء العرب وهجرتهم إلى البلدان الغربية مثلت حلقة وصل بين الموضوعي الأور والذاتي العربي فإن الصلات بين البلدان الغربية ذاتها شكلت للأوربيين صلة الوصل بين الذاتي ( في كل قطر على حدة ) والموضوعي ( البلد الخارجي ). صلات الوصل هذه كانت جسوراً فاعلة لانتقال الخبرات والتجارب وإيقاظ الرغبة في التقليد أو التعلم ( كما عند العرب ) أو التحرر والإسقلال عن بعضهم البعض ( كما عند الغربيين ). لكن الرغبة في التقليد ونقل الخبرات والتجارب عند العرب أيضا جاءت من أجل التفيير في داخل بلدانهم والإنتقال بالمستوى الأدبي والفني إلى ما يقارب الأداء الأوربي أو تجاوزه كما في حالة الشعر الحر ( السياب خاصة ) والقصة القصيرة ( غسان كنفاني مثلا والطيب صالح).

تأثرت النهضتان بشكل مباشر بالأحداث السياسية. فالصراع ضد تحالف الكنيسة – الإقطاع في اوربا وخاصة في انكلترا وفرنسا وصعود البرجوازية وقيام انظمة حكم استبدادية وقيام الثورة الفرنسية الكبرى كانت كلها عوامل سياسية مؤثرة ساهمت في إيقاظ روح التمرد والتغيير عند الناس وطلائعهم الثقافية والأدبية بشكل خاص ودفعت بالمفكرين نحو اجتراح أنظمة فكرية وفلسفية ومناهج تفكير وتناول أدبي وفني جديدة. وفي النهضة العربية كان احتلال مصر من قبل فرنسا وما تبعه من احتكاك حضاري وهجرة الأدباء للخارج واغلبهم لأسباب سياسية الأثر المماثل في الحياة الفكرية والثقافية وألأدبية.

كما أن النهضتين أنجبتا نظريات نقدية غنية بالأفكار وبالتطبيق فأدجار ألن بو لم يكن شاعرا وحسب بال كان ناقداً ومنظرا للأدب وتلاه ت.س. أليوت صاحب اكبر النظريات النقدية مثل نظريةالمعادل الموضوعي وفي البلاد االعربية نرى ما لطه حسين ولشعراء المهجر والديوان وغيرهم كثير من نقاد أثروا الساحة الأدبية بعطاءات غير قليلة.

وإذا كانت النهضة الأوربية قد رافقها فلاسفة ومفكرون كبار مثل سيعغوند فرويد و كارل ماركس وديكارت وسبينوزا وكانت وغيرهم عشرات فإن فلسفتنهم أيضا قد انتقلت إلى البلاد العربية أنصار ومريدوزن كثيرون مثل الماركسية والوجودية ومدرسة التحليل النفسي وغيرها.

وفي النهضتين نجد امتدادات تاريخية ومستقبيلية رائدة ترسخت من خلالها إنجازاتهما في الحياة العامة السياسية والثقافية لكنهما أسستا لوجود مذاهب أدبية وفكرية كبيرة ومؤثرة دفعت الأدب والفن إلى الأمام مراحل كبيرة.